بقلم/ رابح لطفي جمعه

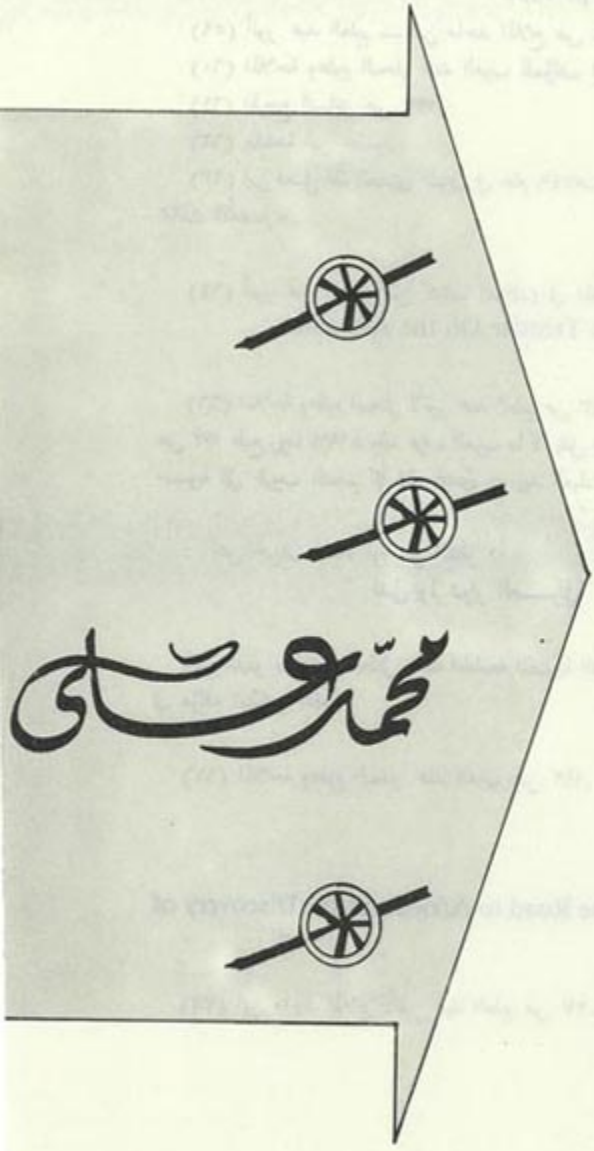

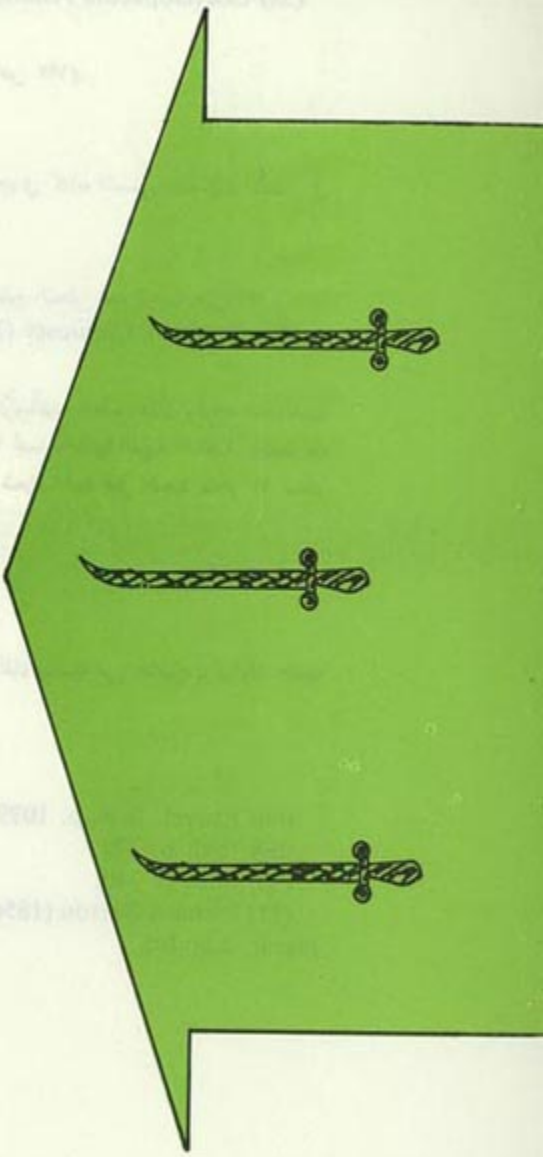

دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية

كتب الاستاذ عبد الكريم الخطيب في كتابه «الدعوة الوهابية، محمد بن عبد الوهاب» يقول: «لماذا آثرت الشيخ محمد بن عبد الوهاب بتلك الصحبة الملازمة له... لقد ترددت في خاطري كثير من الاجابات المتكافئة التي يمكن أن تكون جميعها هي الجواب... لعل القول بأن عقدة الذنب التي أجد لذعتها في نفسي مما كان لتلك الحرب التي شنها محمد علي والي مصر يومئذ بقيادة ابنه ابراهيم والتي ساق اليها كثيراً من أبناء مصر الى محاربة القائمين بتلك الدعوة وما أريق من دماء وما هدم من دور – لعل هذه العقدة هي التي جعلتني أدخل في تلك المعركة مناصراً لها وكأن تلك المناصرة تكفير عن ذنب ربما يكون قد جناه بعض أهلي وان يكن ذلك على كره منهم وهم في يد سلطة متسلطة عليهم... ... ...».

ولقد وقفت عند هذه العبارة طويلاً وعدت بذاكرتي الى مراحل الدراسة عندما كان أستاذ «مادة تاريخ مصر الحديث» يلقننا أن محمداً علياً حارب بالجيوش المصرية أتباع الشيخ الامام محمد بن عبد الوهاب، ويقرر لنا ذلك كأنها حقيقة مسلم بها لا مناقشة فيها ولا جدال، ولكنني كنت أتردد كثيراً في قبول هذا الكلام ويساورني الشك والارتياب في صحته الى أن هيأ الله لي ظروف دراسة تاريخ الشيخ ابن عبد الوهاب ودراسة دعوته دراسة مستفيضة فيما كتبه المؤرخون العرب والافرنج، فتأكد لي أنني كنت محقاً في الشك الذي كان يساورني والارتياب الذي كان يخامرني بشأن هذه «المعلومة التاريخية». وتأكد لي في نفس الوقت أن تصحيح وقائع التاريخ وردها الى الحقيقة والواقع من أصعب الأمور وأشقها على من يحاول ذلك، خاصة اذا كانت الواقعة التاريخية المراد تصحيحها قد تواترت في كتابات المؤرخين ونقلها بعضهم عن بعض كحقيقة تاريخية لا تقبل التمحيص والتدقيق وتأبى على التصحيح والتحقيق.

ولقد وفقني الله في دراساتي الى دحض هذه الفرية التاريخية التي ألصقها

المؤرخون – سامحهم الله – بالمصريين وسايرهم في ترديدها للأسف الشديد كتاب كثيرون ممن تناولوا تاريخ الدعوة الوهابية حتى كتب الأستاذ عبد الكريم الخطيب ما كتب واعتبر هذه الفرية التاريخية – عقدة ذنب دفعت به الى الكتابة عن الدعوة الوهابية وصاحبها تكفيراً عن ذلك الذنب.

نقول انه عندما ظهر الشيخ محمد بن عبد الوهاب في شبه الجزيرة العربية بدعوته السلفية يؤيده أمراء آل سعود – أخذ هؤلاء الأمراء يمدون سلطانهم ويغزون البلاد المجاورة ويبثون الدعوة لعقيدة السلف، فاستولى الامام محمد بن سعود على مدينة الرياض والعيينة وحريملاء، كما استولى ابنه عبد العزيز من بعده على بلاد وأرجاء واسعة من جملتها مدينة الدلم والقصيم وبريدة والاحساء، ثم اتجه نشاط الدعوة نحو الحجاز[1]، فرفع الشريف مسعود شريف مكة سنة ١١٧٢هـ تقريرا للباب العالي في القسطنطينية ينبه فيه الأتراك العثمانيين الى خطورة تلك الدعوة على كيان الدولة العثمانية في جزيرة العرب.

ومنذ ذلك الحين تنبه العثمانيون الى استفحال أمر الدعوة الوهابية ونظروا الى أتباعها وأنصارها نظرة الثائرين المتمردين الذين شقوا عصا الطاعة على الدولة وأدركوا أن الجذوة المتوهجة لن تلبث أن ينتشر نورها حتى يعم شبه الجزيرة العربية كلها وتلفح بنارها هيبة الدولة فأقبلت الى نجد سنة ١٢٠٢هـ قوة حربية تركية بأسلحة لم يألفها العرب يقودها شريف مكة بنفسه عدتها عشرة آلاف مقاتل ومعها عشرون مدفعاً تركيا فالتحم الجيشان السعودي والتركي فدارت الدائرة على المغيرين من الأتراك وانهزموا في موقعة العدوة ودخل الجيش السعودي مكة المكرمة.

ومازال أشراف مكة يستعدون سلطان تركيا لحمايتهم منبهين الى خطر الدعوة الوهابية على الدولة العثمانية، فأصدر السلطان أوامره الى «علي باشا» والي بغداد ليغزو الأراضي السعودية وانضم اليه عبد الله باشا والي الشام وشريف باشا قائد جدة وأقبل امام مسقط الى البصرة بخمس عشرة سفينة حربية وانضم الى الدولة العثمانية في محاربة الدعوة واتجهت الحملة الى الدرعية

ولكن قائدها قتل بين جنوده وصمدت الدرعية بقيادة الأمير سعود الكبير في وجه المغيرين وأدرك الوالي التركي أنه لا مناص له من الحرب الشاملة مع السعودية الناشئة، فوجه جيشه الى الاحساء ولكن السعوديين صمدوا فلم يحقق الوالي التركي أهدافه وقفل راجعا بجيشه يجر أذيال الخيبة والهزيمة.

وفي السنة التالية اجتاح السعوديون عانة على نهر الفرات وزحفوا على دمشق وأخذوا واليها يوسف باشا الملقب بالكنج على غرّة ولكنه صانعهم ووعدهم بقبول الدعوة.

وفي أثناء ذلك كله كانت الدولة الناشئة تستقر وتقوى شوكتها والدعوة الاصلاحية تنتشر ويزداد أتباعها وأنصارها حتى دانت أطراف الجزيرة العربية لسعود، فاستولى على البحرين وبلاد الجوازم وغزا بلاد عُمان وأحس السلطان محمود الثاني على اثر استغاثات شريف مكة أن جانباً من دولته قد ماد واضطرب وأن فئة كبيرة ممن كانت تدين له بالولاء قد أخذت تخرج عليه وتنكر أن يكون خليفة المسلمين غير عربي. ولم يكن ذلك بالشيء الهين على سلطان تركيا الذي كان يعلق أهمية كبرى على حيازته للأراضي الحجازية المقدسة والادعاء بأنه خليفة المسلمين وحامي الحرمين الشريفين. فجند السلطان إذ ذاك – كما يقول سماحة الشيخ عبد العزيز بن محمد بن ابراهيم آل الشيخ حفيد الامام محمد بن عبد الوهاب صاحب الدعوة – بعضاً من علماء الدرهم والدينار لمحاربة الدعوة الوهابية ورميها بالكذب والافتراء كدعوى أن الشيخ يكفر المسلمين وأنه لا يصلي على النبي ﷺ الى غير ذلك من الكذب والزور والبهتان.

ولعبت فرق المتصوفة والدراويش التي كانت تركيا تعج بهم كالمولوية والبكتاشية وغيرها ـــ دورا خطيرا في محاربة الدعوة وأتباعها، وأن القوة العسكرية في الدولة العثمانية المتمثلة في ضباط الانكشارية[٢] كانت واقعة تماما تحت سيطرة وهيمنة دراويش الطريقة البكتاشية؛ فلم يكن من الغريب إذن أن تقوم قائمة هؤلاء البكتاشية ـــ وهم أصحاب النفوذ الروحي على جنود

الدولة ــ فعمدوا الى تشويه سمعة أتباع الشيخ ابن عبد الوهاب ومريديه وأطلقوا عليهم اسم «الوهابيين» تنفيراً للناس منهم كما أطلقوا على دعوة الشيخ وصف «الوهابية» على اعتبار أنها بدعة.

وقد بلغ تأثر الأشراف في الحجاز بالدعاية المسمومة التي نظمها العثمانيون ضد الدعوة الوهابية الى حد أنهم فرضوا الحصار على النجديين ولم يسمحوا لهم بالحج خشية اتصالهم بالعالم الاسلامي في مكة ونشر دعوتهم الاصلاحية بين حجاج بيت الله الحرام.

وازاء استفحال أمر الدعوة الوهابية وهزيمة الحملات التركية الواحدة تلو الأخرى أمام «الموحدين» من السعوديين، وإزاء عجز السلطان عن تسيير جيش عثماني لاسترداد الحجاز بسبب ضعف الدولة العثمانية حينذاك وكثرة مشاكلها الداخلية والخارجية واشتعال نيران الثورة والعصيان والتمرد في كثير من أنحاء الامبراطورية ــ لم يجد السلطان التركي بداً من أن يشن حرباً بواسطة والٍ تركي آخر أشد طموحاً وأقوى شوكة من والي البصرة والشام وغيرهما، ذلك الوالي هو محمد علي باشا الذي استطاع في سنوات قلائل من تقلده مقاليد الحكم في مصر أن يثبت مركزه بعد أن قضى على خصومه، فكلفه السلطان بارسال حملة الى الحجاز وعينه حاكماً عليه، فبادر محمد علي الى اجابة أمر مولاه إذ وجد في ذلك فرصة ذهبية لتحقيق أطماعه وطموحه الحربي والسياسي في الاستقلال بمصر ووضع نواة لاسطول حربي، وأهم من ذلك كله التخلص من الألبان والأرنؤود الذين كانوا من عوامل الشغب والقلاقل في البلاد بعد أن تخلص من المماليك في مذبحة القلعة المشهورة.

وهكذا سير محمد علي جيشا عدته أربعة عشر ألفاً من الجنود الترك والمغاربة الى الحجاز سنة ١٢٢٦هـ بقيادة ابنه طوسون انهزم بجيشه عند «تربة» تاركاً سبع مدافع وأربعة آلاف قتيل على أرض المعركة.

وعلى اثر تلك الهزيمة أمام الجيش السعودي ــ أرسل طوسون لوالده في

طلب النجدة فلم يجد محمد على بدا من تسلم القيادة العامة بنفسه، فركب البحر الى جدة حيث نزلها سنة ١٨١٣م وعزل الشريف غالب عن إمارة مكة لتذبذبه وأقام مكانه الشريف يحيى بن الشريف سرور.

وفي تلك الأثناء مات سعود الكبير فأثر ذلك على الموقف الحربي تأثيراً كبيراً وأتاحت هذه الظروف الحرجة الفرصة لمحمد علي أن يتغلغل في الحجاز، بيد أنه علم أثناء ذلك بهرب نابليون بونابرت من منفاه بجزيرة البا واضطراب العالم على اثر ذلك واحتمال تعرض البلاد لغزو جديد، كما جاءه من مصر خبر تمرد لطيف باشا أحد ضباطه فأسرع بالعودة الى مصر سنة ١٨١٥م تاركا ولده طوسون يتفاوض مع الأمير عبد الله بن سعود الذي خلف أباه سعوداً الكبير، وانتهت هذه المفاوضات بعقد اتفاقية صلح لم يوافق عليها محمد علي ولم يلبث طوسون أن مات بالطاعون سنة ١٨١٦م. فجند محمد علي في تلك السنة جيشا آخر بقيادة ابنه ابراهيم باشا فقصد الى الدرعية حيث بدأ حصارها حصارا استمر حوالي ستة أشهر مما دعا أهل الدرعية الى التقدم بالصلح حقنا للدماء. ومكث ابراهيم باشا بالدرعية فترة من الزمن ثم غادر المدينة على أثرها عائداً الى مصر وترك بها جنده الى أن تم الجلاء عن جميع الأملاك العثمانية بما في ذلك الحجاز تنفيذاً لمعاهدة لندن سنة ١٨٤٠م.

هذه لمحة عجلى عن مراحل الحرب بين محمد علي والدولة السعودية.

ونتساءل بعد ذلك هل حارب محمد علي السعوديين بجيوش من المصريين؟.

نبادر الى الاجابة على هذا السؤال بالنفي، وحجتنا في ذلك أدلة تاريخية لا يرقى اليها الشك.

فالملاحظ باديء ذي بدء أن المؤرخين الذين أرخوا لهذه الحرب من أمثال حسين بن غنام الاحسائي وعثمان بن بشر النجدي وعبد الرحمن الجبرتي المصري وغيرهم ــ يؤكدون في كتاباتهم أن الحرب والمعارك كانت تدور بين «الترك»

وبين الموحدين السعوديين من أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب. وتعبير هؤلاء المؤرخين ــ الذين عاصر بعضهم تلك الحروب[٣] ــ عن القوات التي حاربت السعوديين «بالترك» تارة و «الروم» تارة أخرى و «الططر» تارة ثالثة له دلالة ذات مغزى لا يمكن اهمالها أو الالتفات عنها، فهذا التعبير كان يتفق تماما مع الواقع التاريخي الذي كان سائدا حينذاك، فقد سبق أن ألمحنا الى أن محمد علي رحب بأمر الباب العالي له بمحاربة السعوديين من أتباع الدعوة الوهابية، اذ وجد في الاستجابة لهذا الأمر فرصة سانحة للتخلص من الجنود الانكشارية والأرنؤود والألبان الذين كانوا من أكبر عوامل الشغب والاضطراب في البلاد بعد أن تخلص من أمراء المماليك في مذبحة القلعة..

ويؤكد المؤرخون أن محمداً علياً كان يدبر لجيشه ذاته مذبحة في شبه الجزيرة العربية كمذبحة ضيوفه المماليك في القلعة وذلك ليتخلص من مواطنيه الألبان الذين تمردوا عليه سنة ١٨٠٧م ووقفوا له بالمرصاد لكل محاولة لاصلاح الجيش. يقول المؤرخ المصري عبد الرحمن الرافعي في كتابه «عصر محمد علي» «لقد كان لمحمد علي أغراض أخرى محلية أدركها في الحملة الوهابية أهمها التخلص من طوائف الجنود الارناؤوط الذين ألفوا التمرد والشغب، فقد رأيت كيف ازداد طغيانهم وتمردهم حتى صار خطراً على الأمن وعقبة دون استقرار سلطة الحكومة فكانت الحملة الوهابية فرصة انتهزها ليقذف بتلك الطوائف المتمردة الى الأصقاع النائية من جزيرة العرب لعله يستطيع في غيبتهم أن يدخل النظام الجديد في الجيش المصري وقد سعى الى ذلك فعلا خلال الحملة الوهابية وان كانت ظروف الأحوال لم تمكنه من إنفاذ مشروعه فأرجأه الى سنة ١٨٢٠م» ــ والثابت تاريخيا أن الحرب الوهابية انتهت سنة ١٨١٩.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فاننا نسوق هنا ما اصطلح عليه علماء التاريخ بتسميته «بالدليل التاريخي»، على أن المصريين لم يشتركوا في الحرب ضد الدعوة الوهابية ولم تكن لهم فيها ناقة ولا جمل، ذلك أن المراجع التاريخية العربية والافرنجية التي بين أيدينا ــ تؤكد أن محمداً علياً لم يحارب في شبه الجزيرة العربية بجنود أو جيوش مصرية على الاطلاق، وذلك لسبب ثبت تاريخياً

على وجه الجزم واليقين، ذلك أن محمد علي لم يكن قد كوّن جيشاً مصريا إلا بعد انتهاء حروبه في شبه الجزيرة العربية سنة ١٨٢٠م، ومن البديهي إذن أن لا يكون للمصريين أي ضلع في هذه الحروب لأنهم لم يكونوا قد دخلوا بعد في سلك الجندية..

وقد أكد هذه الحقيقة السردار اسماعيل سرهنك باشا وهو تركي الجنسية وقد تولى نظارة المدارس الحربية في مصر في القرن التاسع عشر حيث قال في كتابه «حقائق الأخبار»: «كان في مصر وقتئذ ــ أي وقت الحرب الوهابية ــ جيش يبلغ ٢٥ ألف مقاتل جميعهم من الباشيوزق[٤] الذين كانت الدولة العثمانية جمعتهم تحت قيادة الصدر الأعظم ضياء باشا لما أرسلته لها لاخراج الفرنسيين من مصر فتمكن محمد علي من أن ينتخب من هذا الجيش قوة للمدافعة عن مصر تبلغ ٨٤٧٢ جندياً من المشاة، ١٧٠٧ من الطوبجية للقلاع والحصون وجعل منه أيضاً قوة متحركة عددها ١٨٣٣٣ مقاتلا انتخب منها ٦٠٠٠ من المشاة و٢٠٠٠ من الطوبجية ومثلهم من السواري للحملة الحجازية المذكورة».

بل أكثر من ذلك يقول سرهنك باشا «لما جهز محمد علي جيشا لفتح السودان بعد حرب الوهابيين كان جيشه من الأرناؤوط» أي أن حرب محمد علي في السودان أيضا لم يشترك فيها مصريون.

وهذا الذي ذكره السردار سرهنك قاطع في الدلالة على أن المصريين لم يحاربوا في شبه الجزيرة العربية. يؤكد ذلك أيضا أن محمد علي عندما فكر سنة ١٨١٥م في انشاء نظام عسكري جديد على نسق الجيوش الأوربية الحديثة بدأ أول ما بدأ في تدريب بعض أولاد المماليك الذين كانوا في خدمته وذلك على يد الكولونيل «سيف» ولم يتمكن من إدخال النظام الجديد على جيشه وفتح المدارس الحربية على النظام الفرنسي وتكوين جيش من أبناء مصر إلا في سنة ١٨٢٤م أي بعد أن كانت الحرب في شبه الجزيرة العربية قد انتهت منذ سنة ١٨١٩م.

وقد أكد السردار سرهنك هذه الحقيقة في كتابه سالف الذكر حيث قال

إن محمد علي «لم يدخل المصريين في الجيش إلا في الحروب اللاحقة لحرب الوهابيين» ــ والحروب اللاحقة ــ كما هو معروف ــ هي حروب محمد علي في المورة والشام وآسيا الصغرى وهي الحروب التي انفتحت بها أمام الجيوش المصرية الأبواب الى القسطنطينية عاصمة تركيا بعد أن تمكن ابنه ابراهيم باشا من الاستيلاء على مفاتيح جبال طوروس التي تفصل بلاد الشام عن آسيا الصغرى.

ونخلص مما تقدم الى أن الزعم باشراك محمد علي المصريين في محاربة الدعوة الوهابية وأتباعها ــ لا يعدو أن يكون «فرية تاريخية» لا أساس لها من الصحة قد ألصقها بعض المؤرخين بالمصريين إما عن غفلة وجهل وإما عن عمد وسوء نية. ولعلنا أن نكون في هذا المقال قد وفقنا الى اماطة اللثام عن الحقيقة في هذا الموضوع والله ولي التوفيق،،

رابح لطفي جمعة

مراجع البحث :

(١) الشيخ حسين بن غنام الاحسائي، روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الامام وتعداد غزوات ذوي الاسلام.

(٢) الشيخ عثمان بن عبد الله بن بشر النجدي، عنوان المجد في تاريخ نجد.

(٣) عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار.

(٤) عبد الرحمن الرافعي، تاريخ الحركة القومية، عصر محمد علي.

(٥) عبد الحليم الجندي، الامام محمد بن عبد الوهاب وانتصار المنهج السلفي.

(٦) عبد الكريم الخطيب، الدعوة الوهابية، محمد بن عبد الوهاب.

(٧) عبد الله علي القصيمي النجدي، الثورة الوهابية.

(٨) عبد الله بن سعد الرويشد، الامام محمد بن عبد الوهاب.

(٩) السردار اسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار.

(١٠) أحمد عبد الغفور عطار، محمد بن عبد الوهاب.

(١١) هاملتون جب وهارولد بوون، المجتمع الاسلامي والغرب، جزآن، مترجم.

(١٢) الدكتور صالح محمد العمرو، بحث النزاع التركي المصري على شمال الحجاز وسيناء وتدخل الحكومة البريطانية (١٨٨٤ - ١٨٠٦)، مجلة الدارة، العدد الأول، السنة الخامسة (ربيع الثاني سنة ١٣٩٩هـ ـــ مارس سنة ١٩٧٩م) ص ٦ وما بعدها.

(١٣) محمد خليل المرادي، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، ٤ أجزاء.

(١٤) محمد بن أبي سرور البكري، الروضة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة.

الهوامش

(١) تجدر الاشارة الى أن بعض المؤرخين يذكرون أنه حتى نهاية القرن الثامن عشر لم يكن أنصار الدعوة الوهابية يكادون يذكرون في سوريا ومصر ولم يتجاوزوا بالنسبة الى السلطات العثمانية أن يكونوا مشكلة حدود يعالجها باشا بغداد حتى ان الجبرتي لم يذكر شيئا عنهم حتى سنة ١٨٠٢ – أما محمد خليل المرادي مفتي دمشق ومؤلف كتاب «سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر» فلا يذكر شيئا عن أنصار الدعوة إلا بطريق غير مباشر (ج٤ ص ٣١ وما بعدها).

(٢) كلمة «انكشارية» مشتقة من الكلمة التركية «ينى جريه» أي الجند أو القوات الجديدة ويكتبها ابن أبي سرور البكري في تاريخه «الروضة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة» وكذلك المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي في كتابه «عجائب الآثار» ينكجريه. ولايزال التاريخ الذي انشئت فيه فرقة الانكشارية وكيفية انشائها من الأمور غير المؤكدة. أما البكتاشية فقد كانوا ينتمون الى «حاجي بكتاش»، وكان الانكشارية كلما ثاروا على السلطان العثماني كان مريدو الطريقة البكتاشية يشتركون معهم في الثورة حتى كانت سنة ١٨٢٦م حينما استأصل السلطان محمود شأفة الانكشارية وصب جام غضبه على جماعة الحاج بكتاش فهدم تكاياهم وقتل رؤساءهم ومريديهم ومنهم شيخ تكية «مردخان كوى».

(٣) عاصر المؤرخ عثمان بن بشر أحداث هذه الحروب حيث انتهى تاريخه بأحداث سنة ١٢٦٨هـ كما شهد الجبرتي الحوادث التي وقعت بين سنة ١١٩١ الى سنة ١٢٣٦هـ (١٧٧٧ – ١٨٢١م) ومنها الحرب الوهابية ودوّنها في كتابه «عجائب الآثار».

(٤) هؤلاء الجنود كانوا غير نظاميين ويطلق عليهم «باشيوزق» أو باشى بازوق».